

العجائبي في رواية أحمر حانه

م.د. زينب عبد المهدي نعمة

جامعة بغداد / كلية العلوم الإسلامية

dr.zaynababd@rashc.uobaghdad.edu.iq

ملخص البحث :

شكل الكاتب حميد الربيعي من الحروب التي دارت في العراق وما عقبها من أحداث السلب، والنهب، وانهيار للمنظومة الاجتماعية وهو ما أطلق عليه (الفرهود) ثيمة لروايته (أحمر حانه) موظفاً تقنية العجائبية في رسم أحداث وشخصيات الرواية ، إذ مثلت - أي العجائبية- ظاهرة بارزة لا يمكن إغفالها إذ استطاع الكاتب أن يعبر عما حملته الرواية من فلسفة وواقعية وغرائبية، وما ورائية السرد. الكلمات المفتاحية : الشخصية ، الحدث، العجائبية ، أحمر حانه ، حميد الربيعي.

The miraculous in the novel Red Pub

Zainab abdulmahdi nema

:Baghdad University \ college of Islamic sciences

dr.zaynababd@rashc.uobaghdad.edu.iq

Abstract

The writer Hamid Al-Rubaie formed from the wars that took place in Iraq and the incidents of robbery and looting that followed, and the collapse of the social system, which was called (Al-Farhoud) a theme for his novel (The Red of the Bar), employing the miraculous technique in drawing the events and characters of the novel, as it represented - that is, the miraculous - a phenomenon that cannot be overlooked, as the writer was able to express what the novel carried in terms of philosophy, realism, exoticism, and what is behind the narration.

Keywords: personality, event, miracle, red bar, Hamid Al-Rubaie.

المدخل :

تقوم رواية (أحمر حانه) للكاتب حميد الربيعي على إحدى التقانات الحديثة في الرواية العراقية ألا وهي العجائبية التي حاول الكاتب توظيفها والإفادة منها في رسم أحداث الرواية، وتشكيل شخصياتها.

إذ شكلت أحداث الرواية وشخصياتها تقاطعاً مع ما هو مألوف فخرقت المنطق والقوانين الطبيعية، مؤسسة منطقاً خاصاً بها.

فالعجائبية أو العجائبي على حدّ تودوروف هو ((التردد الذي يحسّه كائن لا يعرف غير القوانين الطبيعية، فيما هو يواجه حدثاً فوق طبيعي حسب الظاهر)) (تورودوف، ١٩٩٣، ١٨).

أما شروط العجائبية ومصطلحاتها، والفرق بينها وبين المصطلحات الأخرى التي تقترب منها كالفانتازيا، والفتنازيا، والغرائبية، والسحرية فإننا لن نخوض غمار البحث فيها لتواتر الحديث عنها وتوافر المعلومات لمن يطلبها، لذا فقد اختصرت دراستي على عجائبية الحدث والشخصية.

- عجائبية الحدث :

تقوم رواية أحمر حانه على ثيمة الأحداث التي جرت في العراق من حروب بدءاً بالحرب العراقية الإيرانية وصولاً إلى حرب الخليج الثانية وما تبعها من دخول القوات الدولية وسقوط المؤسسات الحكومية ، وانهايار النسيج المجتمعي والسلب والنهب الذي حدث إبان الاحتلال، تلك الفوضى التي أسهمت في انهيار المنظومة الأخلاقية لدى طبقة عريضة من المجتمع، ولكون الرواية ابنة بيئتها، فقد عكست أحداث الرواية الشذمة التي عاشها العراق في ذلك الوقت، فكانت أحداثها غير منطقية كما هو الواقع.

وقعت الرواية في (٢٧) فصلاً، حمل كل فصل منها عنواناً يشير إلى مكان الأحداث (بغداد) بشكل أو بآخر كونها ترمز إلى العراق، من باب تسمية الكل بالجزء (المدينة المدورة، كرخ ١، كرخ ٢، رصافة ٢، رصافة ٢) وتحت كل عنوان عبارة هي عنوان فرعي لذلك الفصل (هذه الأرض ملأى بالطلاسم) (انت تقف عند رسم دارس) (غمرات ثم ينجلين).

ومن الأحداث العجائبية قيام ابن الأثير من رقدته في قبره في الموصل باحثاً عن الفتى الذي أفلت من قبضة ملك الموت وهو حدث عجائبي يؤسس لبقية الأحداث في الرواية.

((كان ابن الأثير ينحني فوق فراشه على سطح الدار من صيف عام ١٢٣٣، عندما مرق بجواره عزرائيل، مرتدياً لباساً أسود، منحني الظهر يهرول قليلاً، إذ إن ساقه اليسرى قد اتعبته من طول

المطاردة، فهو يلاحق شاباً أشقر ذا بزة غريبة، بنطلون ضيق وقميص بنصف كم)) (الربيعي، ٢٠١٧، ١٩) فمشهد كهذا يجانب المنطق والمعقول ويتجاوزه إلى اللامنطق واللامعقول. ومن مظاهر الحدث العجائبي في الرواية ((المفارقة والسخرية من المؤلف الواقعي عبر المكاشفة والخارق والتضخيم، والمرئي وغير المرئي، والرؤى والاحلام)) (عمر، ٢٠٢١، ٥٢١). وهو ما نراه في ولادة ادريس (المسخ) وحمله في بطن أمه ((دائماً كنت مصدر قلق، اتعبتنا وأرقتنا وحوّلت حياتنا إلى جحيم، أنت وقبل الولادة كنت لعنة في بطن أمك، أنقلت عليها رحمها وحملها، كانت تتوء من رفك وكأنك قط، لا تهمد فتسكن آلامها قليلاً، تخجل مما يجري في بطنها ولا تستطيع البوح. من يعقل أنّ غلاماً لم يُولد يمدّ يده عبر رحمه أمه ويسرق قرطاً!)). (الربيعي، ٣٧). فالأحداث بعجائبتها وسخريتها من المؤلف تقدم كوميدية حزينة عن واقع العراق بما فيها من فوضى تُحاكي الفوضى العارمة في العراق من دمار وخراب سياسي واقتصادي واجتماعي، وهجرة إلى العاصمة وما تحملها من تبعات على المجتمع ((فقد تمكن الربيعي أن يوظف العجائبية في الرواية ليثبت لنا مدى سريالية ولا عقلانية ما نعيشه في عراقنا اليوم)). (لفتة، ٢٠١٧). ان الاستعانة بشخصية ابن الاثير، والاطباق الطائرة، والأفاعي الجائرة، والحمير الناهقة والبهلوان المسحر القادر على اصطناع المعجزات، وتحول الفتاة إلى طائر الحدأة، كلها فوضى لا يمكن للعقل ادراكها أو للواقع لمسها.

تشظي وتفكك الحدث في الرواية :

ان التسلسل اللامنطقي هو سمة الرواية الحديثة بعد أن غادرت التسلسل المنطقي للنص الحكائي القديم، فلا غرو أن يكون تسلسل الأحداث في الرواية الحديثة غير معقول ، لكن ما يستوقفنا هو الحدث في الرواية العجائبية الذي يعتمد التفكك والتشظي الأمر الذي ينعكس إلى سير الاحداث في الرواية وتعطل وصول الرسالة إلى المتلقي كون الرواية عجائبية (خطاب يتميز بخاصية ذاتية تكون في الاحداث والاشخاص والاشياء في انسجام تام مع مرجعية القارئ حيث التعايش -إن صح التعبير- والانصهار مع مكوناته. بالنسبة للقارئ. نجد أن العجائبي لا يتعارض مبدئياً مع عالم وتصورات هذا الأخير. هو عامل خطاب تكون فيه الأحداث غريبة عن عالم القارئ حيث يتم تأويل هذه الاحداث على مستويين : مستوى موضوعي وعقلاني والتأويلين تتعارضان ويتناقضان ليظل القارئ، أو المتلقي في حيرة من أمره) (قادي، ٢٠٠٦).

ان الأزمات والكوارث التي عاشها المجتمع العراقي دعت الكاتب إلى تفكيك وتكسير سير الاحداث في الرواية، بل إلى تشظيه الحدث فيها لتعبير عن فلسفته في نقد ما يجري فكان ذلك التفكيك مظهر من مظاهر العجائبية.

في مطلع الرواية نقرأ الاهداء الذي يقول فيه الراوي ((إلى ... مدينة، إن لم تدخلها كأنك لم تر الدنيا)) (الربيعي، ٦) ثم يبدأ الرواية فنقرأ ((أعطوني برهة لأقرأ ما تبقى من اسرارها اللاهية، اللاهثة في التيه)) (نفسه، ٧) .

ويعقبه مباشرة ((لم يكن يُسمع، التفت أخوة الكهف حوله دائرة، يلوحون بصنادل جلدية)) (نفسه، ٧) ثم يشرع في وصف أخوة الكهف ويتناسى الأرض التي يستطيع فك رموزها في بداية الصفحة وتبعاً لتشظي الحدث فإن السرد يتشظى هو الآخر في الرواية وتعدد أصواتها الساردين الذين يسردون الأحداث، فالإهداء جاء بصيغة المخاطب ثم جاء المدخل ١ بصيغة المتكلم، وكذا الحال لسيرورة السرد الذي يتأرجح ما بين نهاية الحدث وبدايته، فتارةً تسرد الاحداث من حيث انتهت لتعود إلى نقطة البداية، كما هو الحال في أغلب احداث الرواية. فتحول الفتاة إلى حدأة لم نعرفها، إلا عند منتصف الرواية، إذ عرفنا أن والده ادريس (المسخ) طلبت من الساحر أن يحول أبنيتها إلى طائر الحدأة ((بعد دفنها بما يليق بأمة عظيمة، سألني الساحر

- هل أنت مستعدة

قبلت وصية أمي بأن أصير طيراً، بالضبط حدأة)) (الربيعي، ٥٠).

ففي الرواية العجائبية يتم ((وصف مخلوقات غير مرئية، أو تحويل الشخصيات المرئية إلى شخصيات غير مرئية، وتعمل هذه المخلوقات على خرق العرف الطبيعي وخلق قوانين جديدة. وتنحو بعض الروايات العجائبية إلى إحياء الكائنات غير الحية لخلق مشهد عجائبي يثير الدهشة ويسري الوصف فيها على الإنسان والحيوان والنبات)) (حسين، ٢٠٠٣، ١٣؛ وينظر النعيمي، ٢٠٠٧).

كما نلاحظ أن الرواية اعتمدت بنية التوازي في سرد الأحداث، فهناك مدخل ١، ومخرج ١ (ومدخل ٢، مخرج ٢) و (مدخل ٣، مخرج ٣) وهو ما يؤدي إلى تشظي الرسالة عند المتلقي، فكأنه أمام قطع للميكافو عليه إعادة ترتيبها لتفكيك رموز الرواية. إذ إن فصول الرواية لا ترتبط ببعضها البعض فالمدخل الأول لا يفضي إلى المدخل الثاني وهكذا، بل هي أي الفصول مقدمات لشخصيات الرواية فالمدخل الأول يقدم لأخوة الكهف والثاني يقدم للعرجاء، والثالث عن ادريس، والرابع عن ابن الاثير. وتمضي الاحداث في الرواية العجائبية بتسلسل لا منطقي . ((الرواية لا تقدم حدثاً معتاداً كما يصرح بذلك المؤلف نفسه أثناء عملية السرد ، بل تقدم اسئلة فكرية مادتها التاريخ وفهم ابعاد المكان والزمان للمدن

بأبسط تفاصيل الحياة هي رؤية الذات المنكسرة للمدينة والإنسان وعلاقة ذلك بالسلطة)) (الزيدي، ٢٠١٩) ففي (القاع ١) نلاحظ فوضى في سرد الأحداث تعكس الفوضى التي تعم كل الأرجاء ((مقاهي، حانات، مطاعم، أسواق، أصناف شتى من البضائع، أغاني ومهرجانات من الصخب والضجيج، أصوات تتقاطع مع صياح الباعة، قارئ حسيني ينوح، يتداخل بجواره مع صوت ((داخل حسن))، موزارت يراقص فرداً، قرآن يُتلى أطراف النهار مع وقع الكؤوس التي ترفع كل حين)). (الربيعي، ١١٧).

المبحث الثاني

عجائبية الشخصية

تعد الشخصية ثالثة الأثافي التي يركز عليها الفن السردي، فقد احتلت مكاناً بارزاً في الفن الروائي في القرن التاسع عشر و ((أصبح لها وجودها المستقل عن الحدث، بل أصبحت نفسها مبنية أساساً لإمدادنا بمزيد من المعرفة بالشخصيات أو لتقديم شخصيات جيدة)) (بحراوي، ١٩٩٠، ٢٠٨) بعدما كانت ثانوية قياساً لعناصر العمل التخيلي أي خاضعة خضوعاً تاماً لمفهوم الحدث. (ينظر : نفسه، ٢٠٨).

إن للرواية العجائبية بناءها الخاص بها سواء على مستوى بناء الحدث أو الشخصية أو البنية الزمكانية، فتعمل - أي الرواية العجائبية - على تأسيس أفعال عجيبة تغذي المحكي العجائبي من خلال الحدث. (ينظر : بلطرش وعكوش، ٢٠١٩، ص ٣٥).
على ذلك فإن الشخصية في السرد العجائبي تمثل ((القطب الذي منه ينطلق الحدث فوق الطبيعي، وعليه يقعن أي أنها إحدى المكونات الأساسية في تحديد الفانتاستك من خلال المميزات الخلاقية والمتجلية في الأوصاف والسلوك النسبي والمادي والأفعال المتجسدة انطلاقاً من الحركات والأقوال)) (عطية، ٢٠١٥، ٤٥).

إن الشخصية العجائبية ((ماهي إلا مساحة مشتركة يجتمع فيها الواقع واللاواقع، وإن طغى الأخير عليها، وهي تقنية فنية استخدمتها الرواية الحديثة لتعبر عن أزمة الإنسان المعاصر، لذلك جاء البناء الفني لهذه الشخصية على وفق رؤية جديدة لا تحتفي بالابعاد الداخلية والخارجية فحسب إنما تعمل على هدم مرجعيتها الواضحة ومن ثم إعادة تشكيلها بصورة غرائبية تتجاوز قوانين الواقع والطبيعة)) (النعيمي، ٢٠٠٧).

وأنا إذ نبحت في الشخصية نلاحظ كثرة الشخصيات في رواية (أحمر حانه) وأغلب هذه الشخصيات عجائبي، فمنذ بداية السرد نتعرف على بعض شخصيات الرواية، وأولها شخصية المؤرخ ابن الأثير، إذ لجأ الكاتب إلى العودة إلى الماضي وهي -أي العودة إلى الماضي- إحدى تجليات العجائية في المتخيل السرد للرواية. وشخصية ابن الأثير هي ليست شخصية عجائية في حد ذاتها يعد حملها لفعل عجائبي إلا وهو العودة إلى الحياة بعد مرور سنين على وفاته وقدمه إلى بغداد، ومراقبة الأحداث واتخاذ قرار إعادة كتابة مؤلفه من جديد بأمانة وحيادية ((اتخذ قراراً باتلافه وتأليف كتاب جديد يحيوي ما رأته عيناه، سيكتبه بأمانة وحيادية، وضع عنواناً أولياً له : ((الفرهود في صيهود)) (الربيعي، ٢٠١٧، ١٠٨).

ثم نأتي إلى شخصية (ادريس العاشق) وهي الشخصية المحورية التي تدير أحداث الرواية، بل هي قطب الرحي، إذ أن كل ما يدور حولها عجائبي، وهي شخصية عجائية بذاتها مُذ كان جنيناً إلى أن يكبر ويأتي إلى بغداد، ويعشق ويجهز جيشاً لغزو البلاد بأمر الجرنال.

قد تطرقنا في المبحث السابق إلى قصته العجيبة وهو ما زال جنيناً في بطن أمه، وولادته الغربية على حافة الهور. الأمر الذي حدا بطاهي الاسكندر أن يشيع بأن الحوت ولد بشراً ((يا سيدي، عندما شقت بطنه خرج هذا المولود)) (السابق، ٤٥) إلى عملية فراره من ملك الموت إلى قتله لوالده ثم فحولته المعوجّه، وعشقه للذهب، وعلاقته بالعرجاء وسلحه لوجهه بوجه جديد ليغزو البلاد بجيش من المتسولين، والافاكين والخراصين، وغيرهم من رعا القوم.

ثم شخصية الحدأة وقد مر بنا عملية مسخها وهو أي (المسُخ) مظهر من مظاهر العجائبي في الرواية ((خلق المفارقة والسخرية من المألوف لواقعي عبر المكاشفة والخرق والمسح والتحول والتضخيم)) (النعمي، ٢٠٠٧).

ومن الشخصيات العجائية في الرواية أخوة الكهف ويدخل في عجائبيتهم كل ما يدور حولهم من اسم، ورسم، وافعال يقومون بها. هم يحملون اسماً واحداً (دانيال) الأكبر، الأصغر، الثاني، الثالث ((أخوة الكهف خمسة ... يلوحون بصنادل جلدية، كانت في الأصل طرية، بيد أنها تغصّنت ومت الفطريات في ثياها، بالإضافة إلى رغو القبح التي تفتقت من أصابع أقدامهم على مر الأيام فجعلتها كالصخرة)) (السابق، ٧).

إن ما يمكن ملاحظته أن شخصية ادريس كانت تتمثل في أكثر من هيئة وتلك الهيئات في مجملها كانت ايقونة للشر المطلق، فتارة يتمثل بالغراب وهو رمز الشر ((دخل الديك والغراب إلى

خمارة سربا وثملا، وكانا متشابهين لون الأسود والاجنحة المنتوفة الريش)) (الربيعي، ١٢) وكاية الديك والغراب معرفة بالموروث الشعبي رمز الشر والتشاؤم. وفي تارة أخرى يتمثل بصورة الشيطان فالراوي يصفه بالشيطان ((ذلك الفى الذي يشبه الشيطان)) (نفسه، ٨٦) وفي مرة أخرى تصفه العرجاء بالجني ((عندما استيقظ لأجده، مثل جني يختفي الليل كله، في الصباح أجده في فراشه راقداً)) (نفسه، ١٤٩). كما أن شخصية ادريس ليس لها صفات جسمانية سوى أنه شاب اشقر وكذا الحال لباقي الشخصيات.

اما الشخصيات النسوية فهن أربع شخصيات (العرجاء، والحدأة، أم ادريس، والزنجية) لم نجد لهن وصفاً جسدياً إلا على هامش السرد وكان للعرجاء الحظ الأوفر من بينهن في الوصف بالعرجاء ((امرأة في الأربعين من عمرها متسخة الثياب، ويعلو رأسها شمعدان من نحاس ... مثل دابة سوداء تتدحرج في أحد الأزقة الفرعية ... كتلة غير محددة الملامح، حسبها خنزيرة كأنها خارجة من قرون سحيقية ... غليظة الشفاه، وخيط دم يشرم الشفة العليا ويسيل نحو الفم)) (الربيعي، ١٥٨). أما الزنجية ف((شفاتها تتهدل كرتل من التمر العفن، عجيزتها تتكون من آليتين مدرعتين وتغسل بعرقها كل حين)).

أما والدة كل من أدريس والحدأة فقد وصفتها ابنتها ب((كانت أبنة الثلاثين عاماً، جميلة ورشيقة مثل غزال، تتغنى الناس بطلعها وعيونها التي تشبه الريم، في خصرها ترقد انوثة مشتهاة وبين سيقانها تربض خيول نائمة، دائماً على كتفها تعشش العصافير مبهجة ، كانت ميساء كعود البان في طراوته)) (نفسه ٣٨). لقد اهتم الكاتب بوصف المكان أكثر من وصف الشخصيات.

ومما يجدر الإشارة اليه أننا وجدنا في لغة الرواية استعارات وتشبيهات غريبة، فكانت مظهراً من مظاهر العجائبية ((إن احتفاء استعارات وخيالات لا تملك وجوداً فعلياً ويستحيل تحققها في الواقع في وسيلة من وسائل السرد العجائبي)) (علاوي، ٢٠٠٥).

فالنص السردي في الرواية يتجاوز اللغة التقريرية للرواية إلى لغة شعرية مكثفة وإيحائية مليئة بالمجازات والاستعارات، إذ تشكل الأخيرة دعامة لغوية للخطاب الروائي فقد استطاع الكاتب أن يجعل لغة الرواية تفيض بالدلالات الإيحائية ((حيث يكتب بتقنيات عالية ... فهو يتقنى خلال انتاجه الابداعي كل مستويات التحديث)) (حسن، ٢٠١٧) فيعمد إلى انتقاء المفردات والكلمات المفعمة بالايحاء، والقوة المجازية ((وانتقاه الدلالة وتعددها والصور الفنية المبنية التجسيد والتشخيص، وتراسل

مدركات الحس باللغة الشديدة التكيف والاختزال)) (حمدان، ٢٠٠٨) على ذلك أنه استطاع بذكاء توظيف الاستعارات والتشبيهات الغربية لخدمة نصه العجائبي كانت رغم غرابتها تمسك بوتر الرواية الحساس. فتمتدقنا بعض التشبيهات الغربية في النص، كما في تشبيهه لمدينة بغداد بالخنفاء ((سيكون ما يكون، ثمة غلام وحيد في مدينة مترامية الاطراف، وتشبه الخنفساء، يقبع مثل جرد في حيّ آيل إلى السقوط عند ملتقى الدروب يقف تائهاً، عيناه تدوران ورأسه مثل الرقاص)) (الربيعي، ٥٣).

ثم ليحاً الكاتب إلى أنسنة الأشياء ((مياه الأهوار انسحبت إلى غير رجعة، مثل خيوط الضوء تتسلل رويداً ثم تركض هاربة إلى المجهول، تبقى الأرض ناظرة بحزن إلى تفتتها وانكسار اديمها)) (نفسه، ٥٢) إن الوصف يومية إلى الوطن الذي دمر بسبب الحروب والحصار، فبغداد تقوَّعت في ماضيها وانغلقت عليه، الأمر الذي جعل الكاتب يستدعي الشخصية التاريخية ابن الأثير الذي بدوره فكر في إعادة كتابة تاريخ بغداد وتنقيته من الزيغ والزور.

المصادر :

- ١- احمر حانه، حميد الربيعي، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، الجيزة، ج.م.ع، ط١، ٢٠١٧.
- ٢- بنية الزمن في الرواية العجائبية رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي للطاهر وطار انموذجاً، جوهر بريطل، رسالة ماجستير، جامعة محمد بن خيضر بسكرة، كلية الاداب واللغات ، ٢٠١٦.
- ٣- بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، حسن بحراري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٠.
- ٤- البنية في الأدب، روبرت شولتز، ت : حنا عبود، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٤.
- ٥- تجاوزية المعنى وتداخل الانساق الصوتية، عقيل هاشم الزبيدي، صحيفة كتابات، ٥ فبراير ٢٠١٩.
- ٦- جولة "أبيض قلب" في دهاليز احمر حانه للروائي حميد الربيعي، حميد للفتة، انفاص، ٢٣ نيسان ٢٠١٧.
- ٧- سحرية الواقع شعرية الوهم في رواية (احمر حانه)، عبد علي حسن، صحيفة الصباح الجديد، ١٨ يونيو ٢٠١٧ .
- ٨- سردية التخيل العجائبي في رواية ارض ريكولا لعمر عبد الحميد، بشرى بلطرش وهاجر عكوش، كلية الأدب واللغات، جامعة اكلي محند ولحاج، الجزائر ٢٠١٩.
- ٩- العجائبي في رواية الطريق إلى عدن، فيصل غازي النعمي، مجلة جامعة تكريت الإنسانية، ع٣/٢، لسنة ٢٠٠٧.
- ١٠- عجائبية الحدث والشخصية في رواية عرس الزين للطبيب صالح، سعدي موسى عمر، مجلة AJSP، ع الثلاثون، ٢ نيسان ٢٠٢١.
- ١١- العجائبية في الرواية العربية (من عام ١٩٧٠ إلى نهاية ٢٠٠٠) فاطمة بدر حسين، اطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، كلية التربية للبنات ٢٠٠٣.
- ١٢- مدخل إلى الأدب العجائبي، نزيهتان تودوروف، ت : الصديق بو علام، دار الكلام، الرباط، ١٩٩٣.
- ١٣- اللغة الشعرية وتجلياتها في (البحث عن ازمنا بيضاء) عبد الرحيم حمدان حمدان، صحيفة ديوان العرب، ١٤ أيلول ٢٠٠٨.